افتتاحيّة رئيسة التحرير
الاستشراق، التثاقف: سؤالٌ يتجدّد

وها هي "رؤى فكريّة" تعود لتطلّ على قرّائها بهذا العدد الجديد الخاصّ بموضوع أسئلة "الاستشراق" وإشكالاته، وإسقاطاته الإيديولوجيّة والمعرفيّة، المنسحبة على كثيرٍ من جوانب الفكر والأدب والثقافة، والمكوِّنة مجالا واسعا من الالتباس، وفسحةً خصبةً للتأمّل والإضافة التأويل.

وممّا يلفت النظرَ في هذا الشأن وفرة الدراسات وتعدّدها في مجال الاستشراق والدراسات التراثيّة، وبخاصّةٍ الشعريّة، باعتبار أنّ الشعر ديوان العرب الأول، ومصدر إبداعهم وتميّزهم عن بقيّة الأمم، ولذا، وسعيا نحو طرق أبواب المغيَّب والمنسيّ، يختصّ هذا العددُ في الشقِّ الأرحب من أبحاثه بمناقشة هذا الإشكال من خلال علاقته بموضوع تلقّي "الأدب العربيّ الحديث والمعاصر"؛ ذلك الموضوع المفصليّ الذي لم يحظ بما يكفي من دراساتٍ وتأمّلات، والذي لم يعدْ فيه السؤال ثنائيّا، حول تراثٍ شرقيٍّ مغمورٍ، يرزح تحت وطأة النسيان والتجاهل، ويُضطلَع بإحيائه، ونفض الغبار عنه، والتقاط كنوزه المكنونة التي لم يهتدِ إليها أهلُه، وكلّت أنظارُهم عنها، أو حول كيانيْن مختصميْن حتما، ومحتربيْن؛ كيان الشرق المستلَب، المتخلِّف، وكيان الغرب السالِب، المتقدِّم، بل غدا السؤالُ أشدّ تعقيدا، وأكثر تفصيلا، اضمحلّت معه جرعة التناقض الحادّ، والتفاوت المفصليّ في مرجعيّات الإبداع وآليّات التفكير؛ فلم يعد النصّ العربيُّ الحديث والمعاصر – أدبيّا كان أم فكريّا – أسيرَ نمطٍ واحدٍ من التشكّلات والتمثّلات؛ النمط القوميّ والمحلّيّ، بمعناهما المنغلق والضيّق، بل غدا فسحةً واسعةً لامتصاص مختلف المذاهب والتيّارات، واستيعابها، والتفاعل معها، ففي مجال الشعر – مثلا – لم تعد العلائقُ منفصمةً تماما بين الشاعر العربيّ ونظرائه من شعراء العالم ومبدعيه؛ فكثيرا ما نجد أنّ تطوّر القصيدة العربيّة

المعاصرة مرتبطٌ بالأثر الأجنبيّ فيها؛ فعلى سبيل المثال، كان شعراء مجلة "شعر" اللبنانيّة مواكبين لنظرائهم من الشعراء العالميّين؛ كإزراباوند(*Ezra Pound*) وأوكتافيوباث(*Octavio Paz*) وسان جون بيرس(*Saint-John Perse*) وإليوت(*T. S. Eliot*) وغيرهم، فأتيحت لهم فرصة الاطلاع على هذه التجارب في لغتها الأصليّة، أو عبر الترجمة وسيطا لغويّا وإبداعيّا، لجأ إليه غيرهم من شعراء الحداثة والتجديد؛ كالسيّاب، الذي كانت إفادته عاليةً جدّا ممّا تُرجم من كتاب: "الغصن الذهبيّ"(*The Golden Bough*) لجيمس فريزر(*James George Frazer*) فكانت الفسحة متاحةً أمامه وأمام معاصريه لتلوين معارفهم الوافدة بما هو متجذرٌ في أنفسهم وذائقتهم من تراثٍ وموروث شعريّ وفنيّ دفين، ممّا يطبع أشعارَ هذه المرحلة، وهذا التيّار، بكثيرٍ من الانفتاح الفكريّ، والقدرة العالية على استيعاب مختلف التجارب والمعارف، المنصبّة في صميم الكليّات، والإشكالات الكونيّة الشاملة. وهو ما ينطبق أيضا وبشدّةٍ على فنّ الرواية، الذي طالما طرق أبوابَ التجريب، واقتحم مجالات التجديد، ومثله فنّ القصّة القصيرة، وفنّ المسرح، وحتّى التجارب النقديّة والتأمّلات الفكريّة، التي طالما ترافدت فيها أسئلة التراث، مع أسئلة الحداثة، وشكّلا معا نسيجا متناغما، ومتينا، كما هو الحال مثلا مع تجربة "طه حسين" في محاورة التراث، وتفكيك شفرات الالتباس والغموض فيه.

وبناءً على هذا، فقد حفل هذا العدد بجملةٍ من البحوث العلميّة الرصينة، باللغتيْن: العربيّة والإنجليزيّة، تناقش هذا الإشكالَ، وتحاوره، وتتوزّع على موضوعاتٍ ومحاورَ جزئيّةٍ، متنوّعة؛ بعضها يهتمّ برصد نظرة بعض الأقلام الغربيّة المعروفة نحو أهمّ محطات ومعالم الثقافة والأدب العربيّيْن، كالبحث عن علاقة "جاك بيرك"(*Jacques Berque*) بالأدب العربيّ المعاصر، والوقوف عند نقد "خوان غويتيسلو"(*Juan Goytisolo*) لصورة العربي/المسلم في الخطاب الاستشراقي الإسباني، ورصد مصادر "بورخس"(*Borges*) الاستشراقيّة، وعلاقته المعرفيّة المتينة بكثيرٍ من النصوص العربيّة، يأتي سِفر "ألف ليلة وليلة" على رأسها جميعا.

وبعضُها الآخر يقف عند تأثير بعض المقولات الاستشراقيّة على تشكيل صورة الخطاب لدى بعض الباحثين، والمفكرين العرب، والذي توزّع على بحثيْن؛ أحدهما عن: "طه حسين" والثاني عن: "فاطمة المرنيسي" وكلاهما يملك مشروعا جريئا، مثيرا للجدَل، ومحرِّضا على الانتباه.

وحظي مجالُ السرد بأربعة بحوثٍ، ناقش أوّلُها أثر المتخيل الاستشراقي في تلقّي النصوص السردية العربية في البيئة الفرنسيّة، متخذا من "الليلة الثانية بعد الألف" (*La Mille et Deuxième Nuits*) لتوفيل غوتييه (*Théophile Gautier*) أنموذجا، وتناول الثاني ما تطرحه الرواية الفرانكفونيّة من أسئلةٍ وإشكالاتٍ حول العلاقة مع الآخر، ومجالات التفاعل والتواصل معه، فيما كان موضوع البحث الثالث عن: تمثيل السّرديّة العربيّة المعاصرة "للمتخيّل الاستشراقي" واهتمّ البحثُ الرابعُ بموضوع العلاقة بين المدرسة الاستشراقية البريطانية والرواية المصرية، حيث كرّس أعلامُ هذه المدرسة جهدا كبيرا في ترجمة ودراسة هذا النوع من الروايات العربيّة.

كما حظي العددُ بدراستيْن ترصدان واقعَ استقبال وتلقّي بعض الأعمال العربيّة في بعض البلدان الأوربيّة؛ فكان البحثُ الأوّلُ عن: "حضور المسرح العربيّ في المشهد الثقافي الإسبانيّ" حيث يرصد تفاصيلَ وسياقاتِ ترجمة بعض المسرحيّات العربيّة وتقديمها إلى المتلقّي الإسبانيّ، وما نالته من نجاحٍ باهرٍ أو متواضعٍ، مع تفسير الإقبال على بعض الأعمال أو الأسماء، وإهمالِ أعمالٍ أخرى، لا تقلّ أهميّةً عن الأولى، ولكنّها لا تلقى شيئا من الاهتمام الذي تلقاه تلك. أمّا البحثُ الثاني، فناقش الإشكالَ نفسه، ولكنّه اختصّ بواقع ترجمة وتدريس الأدب العربي المعاصر في جامعات إيطاليا، وما يستدعيه هذا من مصاعب وتحدّيات.

وفي باب الترجمات، نجد بحثا مترجَما عن الإنجليزيّة، أعدّته الأكاديميّة الإيطاليّة "جولاندا غواردي"(*Jolanda Guardi*) عن إشكال تلقّي وترجمة الأدب الجزائري في إيطاليا، وما تخضع له عمليّة الترجمة هذه من معايير، ومن أولويّات، بعضُها إبداعيٌّ

بحت، وبعضُها الآخر – إن لم يكن أغلبها – لا علاقة له بمستوى النصّ أدبيّا، وجودته إبداعيّا.

أمّا بابُ "المقاربات التطبيقيّة" فضمّ قراءتيْن، نقلتنا أولاهما إلى مجال الفنّ التشكيليّ، لتناقش إشكالَ اِلتقاط بعض أسفار "العهد القديم" – وتحديدا سفر يهوديت غير المعترَف به تماما – وسكبها في فضاء اللوحة، لدى فنّاني عصر النهضة، الذين يمكن اعتبارُ هذا الموضوع عندهم أحدَ أوجه حضور الشرق واستحضاره، قبل أن يغدو موضةً ملازمةً لمصوّري الحقبة الرومانسيّة بعد ذلك. وكان نموذج القراءة التطبيقيّ ممثلا في تجربة كلٍّ من: "كارافاجو"(*Caravaggio*) و"أرتيميسيا جنتلسكي"(*A.Gentileschi*) الإيطاليّيْن، مع الاستئناس بتجارب بعضٍ من معاصريْهما. وكانت القراءة الثانية مختصّةً بموضوعٍ إشكاليّ أيضا، يخصّ نظرة الغربيّين الغامضة نحو النبيّ محمّد، التي كانت في أقلّها منصفةً، ومتعاطفةً، فيما جمح أغلبُها نحو التعصّب والهجوم العنيف، وهذا بالتركيز على مسرحيّة: "التعصّب أو النبيّ محمد"(*Le fanatisme ou Mahomet le prophète*) لفولتير (*Voltaire*) فيلسوف وأديب عصر الأنوار في فرنسا، والوقوف عند ما ضمّنته من أفكارٍ وأسئلةٍ، وإحالات.

وخُتِم العددُ ببحثيْن باللغة الإنجليزيّة، أحدهما بقلم المستعرِب الإسبانيّ المعروف: "غونثالو فرنانداث باريّا"(*Gonzalo Fernández Parrilla*) أستاذ الأدب العربيّ المعاصر في قسم الدراسات العربيّة والإسلاميّة بجامعة "أوتونوما"(المستقلّة) بمدريد، ومدير "مدرسة طليطلة للمترجمين" بين عاميْ: 2002- 2006، وعضو لجنة التحكيم في الجائزة العالميّة للرواية العربيّة- دورة عام 2012، الذي قدّم دراساتٍ وترجماتٍ عديدةً عن الأدب العربيّ الحديث والمعاصر، واختصّ كثيرا بالأدب المغربيّ، كما في دراسته: "الأدب المغربيّ المعاصر؛ الرواية، والنقد الأدبيّ" (*La literatura marroquí contemporánea. La novela y la crítica literaria*) (2006)

و"خرق القانون: زفزاف والعروي والرواية المغربية" (*Breaking the Canon: Zafzaf, Laroui and the Moroccan Novel*) (2011) و"الرواية في المغرب مرآة لتغيير المجتمع" (*The Novel in Moroco as Mirror of a Changing Society*) (2016) وغيرها.

وكان موضوع بحثه عن علاقة الاستشراق الإسبانيّ بترجمة وتلقي الأدب العربيّ المعاصر، وتدريسه في جامعات إسبانيا ومراكزها البحثيّة، مع تسليط الضوء على جائزة "نوبل" التي حصل عليها "نجيب محفوظ" وأثرها في تفعيل هذا المجال وإثرائه.
وكان البحثُ الآخر عن أثر الاستشراق في ترجمة وتلقّي الرواية العربيّة المعاصرة، وهذا بالتركيز على نشاط المترجم الإنجليزيّ الذي بذل جهودا كبيرةً في سبيل انتقاء وترجمة بعض الروايات العربيّة إلى الإنجليزيّة: "أنطوني كالدربانك"(*Anthony Calderbank*)

وهكذا، حاول جميعُ الباحثين محاورة سؤال العدد وملفّه، كلٌّ حسب اهتماماته، وأدواته، ولا يسعنا سوى أن نسجّل مرونة هذا الموضوع، وقابليّته العالية لاستيعاب مختلف الأسئلة والتمثّلات، ولا نملك سوى أن نشيد بجميع التجارب العربيّة والغربيّة في ترجمة الأدب العربيّ، قديما كان أم حديثا، ودراسته، واحتوائه، والقفز به خارج أسوار بيئته الضيّقة – مهما رحبت – ليطلّ على القارئ العالميّ، وينصهر في عموم الثقافة الكونيّة، وينفتح على آفاقٍ أعمق، وأرحب.

هذا عن الجانب العلميّ الذي تجلّى من خلال موادّ العدد، وبحوثه، أمّا الجانبُ الخارجيُّ – الذي لا يقلّ أهميةً حسب ما أرى – فكما اعتدنا في كلّ عددٍ، من احتفاءٍ بالفنّ والجمال، وتكريسٍ لطاقاتهما، فقد حفل الغلافُ هذه المرة بلوحةٍ جميلةٍ ومدهشة، للمبدع العربيّ الكبير، الفنّان: "حلمي التوني" من مصر الشقيقة، بعنوان: "تحيّة إلى دولاتور"(*Salutation à De La Tour*) بتقنيّة الألوان الزيتيّة على القماش (*Peinture à huile sur toile, 2017*) (100×70) التي من المقرّر عرضُها

في معرضه الشخصيّ القادم: "ليه يا بنفسج" الذي سيُفتتَح يوم: الجمعة/16/مارس/2018، في قاعة "بيكاسو" بالزمالك، في القاهرة.

وإنّه لمنْ دواعي اعتزازنا أنْ نحظى بهذا الشرف المزدوج:

- شرف الحصول على إحدى لوحات هذا المبدع الكبير، الذي تضيء لوحاتُه عتمة الوجدان، وهو الاسمُ اللامعُ، والغنيُّ عن أيّ تعريفٍ، بخبرته الواسعة، وتجربته الرصينة، الممتدّة على مدى عقودٍ كثيرةٍ، شارك خلالها في معارض شخصيّة وجماعيّة كثيرة، في بلدانٍ عديدة؛ كمصر، وبيروت، وألمانيا، والبرتغال، والعراق، وسوريا، واليابان. ويُعدّ واحدا من أهمّ الفنّانين المختصّين في مجال تصميم أغلفة الكتب والمجلّات، حتّى بلغ عددُ الكتب التي أشرف على تصميمها –كما تذكر الموسوعة الحرّة: ويكيبديا – أكثر من ثلاثة آلاف كتابٍ، عدا المجلّات التي حضرت لوحاته بقوّةٍ على أغلفتها، مثل "الهلال"، و"العربيّ" و"فنون"، وغيرها.
- شرف أن تكون هذه اللوحة غير معروضةٍ قبلا، وأن تنفرد "رؤى" بنشرها، قبل أن تُعرَض على جمهورها القادم من متذوّقي الفنّ، وعشّاقه، وإنّه لكرَمٌ باذخٌ هذا الذي أحاطنا به مبدعنا القدير، وهو يهدينا هذه اللوحة الرائعة، التي تنسجم كثيرا مع موضوع هذا العدد، وتحتوي محاورَه بامتياز، وطالما تردّدتُ في طلبها، خشية أن يكون ما أطلبه كثيرا، ولم يسبق لي التواصلُ مع الفنّان "التوني" وإن كنتُ أتابع جديدَه أوّلا بأوّلٍ، ولا هو يعرفني، أو يعرف شيئا عن مجلة رؤى، ومشروعها الأكاديميّ، الطامح دائما نحو الإبداعيّ، ولكنْ ما إنْ ألمحتُ إليه بهذا، حتّى وافق مباشرةً، بكثيرٍ من الكرم والتواضع، اللذيْن لا يعرفهما سوى الكبار، ولم يوصني حينها إلا بأنْ أذكر أنّ اللوحة مُستلهَمةٌ من دولاتور، حفاظا على الأمانة الفكريّة، وأضاف أنّ هذا تقليدٌ يلتزم به في كلّ معرضٍ يقيمه، فيقدّم فيه "تحيّةً لأحدِ كبار روّاد الفنّ عربا أو أجانب." فشكرا لكَ أيّها المبدعُ الأصيل؛ شكرا لكرمك، وشكرا

لتواضعك، وشكرا لأنّكَ لم تبخلْ عليَّ بإضافة تلك اللوحة التي أحببتُها كثيرا منذ أوّل نظرة.

ولكنْ، ما الذي تحفل به من معانٍ؟ وما علاقتُها بموضوع الاستشراق، أو بالأحرى: التثاقف، والانفتاح الفكريّ والإبداعيّ في أرقى معانيهما؟

وهو ما يمكن تلمّسه بالوقوف عند عنوانها: "تحيّة إلى دولاتور" التي رسمها تقديرا واحتفاءً بالرّسام الفرنسيّ "جورج دولاتور"(*Georges de La Tour*)(ت1652) الذي لم يلقَ من معاصريه ومَنْ بعدهم سوى الجحود، والنسيان، وهو المتميّز بلمسته الاستثنائيّة في رسم الشموع، والتمكّن من مزاوجة الإنارة والظلام، وتوظيف تقنيّتيْ "التظليل"(*Chiaroscuro*) و"المنظور"(*Perspective*) وتأتي لوحة الفنّان "حلمي التونيّ" لتتعالق إبداعيّا وتتحاور مع لوحة دولاتور: "المجدليّة أمام القنديل"(*La Madeleine à la veilleuse*) التي رسمها سنة 1644، وصوّر فيه المجدليّة "التائبة"(*pénitente*) تحدِّق بصمتٍ في ضوء شمعةٍ منسكبَةٍ على كأسٍ شفّافةٍ تضعها فوق طاولةٍ قريبةٍ، وتضع عليها أيضا كتابا – هو حتما الكتاب المقدّس – رمزا للإيمان الذي يغمر قلبَها، وسوطا، رمزا لحالة الزهد، وقمع نزوات الجسد التي تحياها، وعلى ركبتيْها تبدو جمجمةٌ بشريّةٌ مخيفةٌ، هي خير إيماءٍ إلى الموت القادم، والقريب دائما مهما كان بعيدا. وهو ما لم يبدُ في لوحة مبدعنا: "التوني" الذي اِلتقط الحالة الإنسانيّة في عمومها؛ فبدت اللوحة رباعيّة العناصر: الشمعة المفردةُ، المكابِرة، والليلُ الحالكُ، المنكسِر رغم جبروته أمامها، والفتاة الحالمة، التي تسرح بنظرها بعيدا، في عمق النور وما وراءه، والنجمة البنيّة المزهرة، التي تزيّن وسط ثوبها، وتأتي رمزا حيويّا، بديلا عن الجمجمة؛ رمز التآكل والفناء. ولكنْ، هل الفتاة هنا هي نفسُها المجدليّة؟ الأرجح أنّها كذلك، فهي استلهامٌ صريحٌ لها، بعينٍ عربيّةٍ، ونظرةٍ شرقيّةٍ، غير أنّها فوق هذا هي روح الأنوثة، بمعناها الكونيّ الشامل، الذي لا يظهر في هذه اللوحة فحسب، بل غالبا ما نجده مبثوثا في بقيّة لوحات مبدعنا ومعارضه، كما في "لعب

البنـــات وآلهـــة الإصـــلاح"(2005) و"نفـــرتاري وأخواتهـــا"(2008) و"المـــرأة والحصان"(2013) و"المغنى حياة الروح"(2015) و"شبابيك"(2016) وغيرها.

ولعلّ هذه النزعة الإنسانيّة، المنحازة دوما نحو الفرح والحياة، هي خير ما يختصرها قولُه: "الإنسان كما أراده الله أن يكون... الإنسان بحبِّه للفنِّ، والجمال، والحياة... الإنسان في صورته النقيّة الأولى، يعيش حياةً صافيةً نقيّة، يستمتع فيها بكلِّ ما حوله من جمالٍ، ويصلّي في كلِّ لحظةٍ لهذا الجمال، وللإله خالق هذا الجمال."[1]

ولم يبق ختاما سوى أن نجدّد خالص الشكر والتقدير لجميع السادّة الأساتذة الأفاضل أعضاء اللجنتيْن العلميّة والاستشاريّة، الذين لم يدّخروا جهدا في سبيل قراءة البحوث وتقويمها، وإثرائها بملاحظاتهم العلميّة المنهجيّة والرصينة، وإنّه لممّا يدعو إلى الإكبار حقّا روحهم الانفتاحيّة العالية، وتجاوبهم الجميل مع تعقيبات بعض الباحثين، وردودهم، فكان الحوارُ بين الطرفيْن على غايةٍ من الموضوعيّة والاتزّان، وتلك واحدةٌ من أهمِّ الغايات التي نسعى إليها، ونحاول بجميع السبل تكريسَها وتأكيدها من خلال منبرنا الأكاديميّ "رؤى."

ونجدّد دعوتنا لجميع الباحثين الجادّين لإثراء بقيّة الأعداد القادمة، ببحوثهم الرصينة، المنسجمة مع ضوابط النشر وشروطه.

تقبّلوا جميعا خبراء، وباحثين، وطلبة، وقرّاء تحيّاتنا الخالصة... بكم، ومعكم نستمرّ... معا... جميعا في سبيل بحثٍ علميّ راقٍ ورصين.

رئيسة التحرير

د. بهاء ين نوار

[1] حلمي التوني، جزيرة الرقص والفنِّ والآلهة، مجلة الهلال: القاهرة، ع12، ديسمبر 1968، ص: 98.